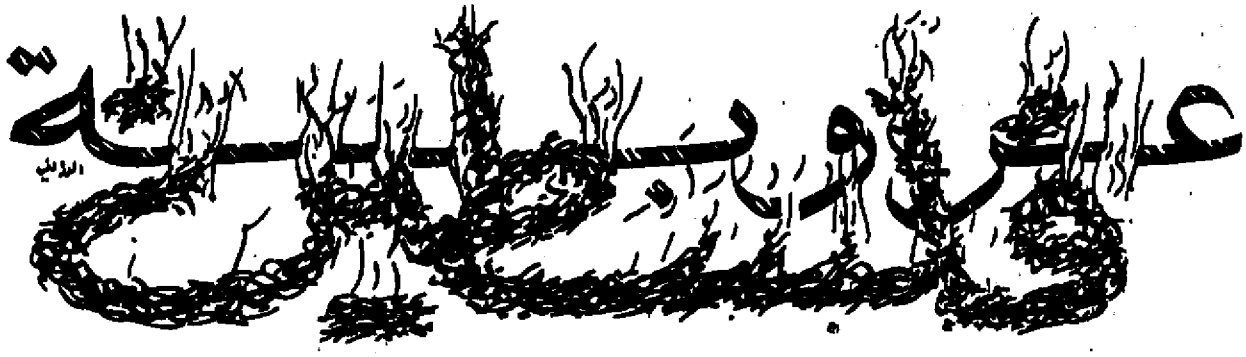

الدكتور أسعد عومد "دمشق"

ابطر الصهيونيين فشل العرب عام 1948 ، في القضاء على احلامهم في اقامة دولة لهم في قلب العالم العربي ، في البقعة المقدسة فلسطين ، وزاد في جرائهم نجاح عدوانهم على مصر عام 1956 ، اذ اشتركت معهم في المعركة دولتان كبيرتان هما انكلترا وفرنسا ، بينما ترك العرب مصر لمصيرها ، تواجه العدوان لوحدها .

وبلغت النشوة والخيلاء بالصهيونيين حد الجنون اثر ظفرهم ، غدرا وغيلة ، بالعرب في معركة حزيران 1967 فاستخفوا بالعرب وقدراتهم على الحفاظ على ما تحت ايديهم من ارض وتراث ، فانطلقت من افواه المسؤولين الصهاينة اصوات وصيحات ، تفضح بوضوح ودون تورية او تمويه ، المخطط الصهيوني البعيد المدى ، من ضم والحاق وتوسيع على حساب الارض العربية . ولم يستبعدوا التفكير في الاعتداء على الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز .

اما القدس فقد اعتبر الصهاينة امرها منتهيا ، فامروا باحراق المسجد الاقصى ، الذي يمثل احد المقدسات الكبرى للعالم الاسلامي ، غير مقيمين وزنا لرد فعل العرب ، ولا لغضب المسلمين المنتشرين في اصقاع الارض . اذ كانوا يريدون ان ينتهوا ، وبأسرع ما يمكن، من القضاء على كل ما يربط العرب والمسلمين بالقدس ، والارض المقدسة فلسطين ، ليسهل عليهم امر ترحيل من تبقى من العرب في القدس والمدن الفلسطينية الاخرى ، الى البلاد العربية .

وكان القادة الصهاينة واثقين من انه لن يصدر عن العرب والمسلمين رد فعل جدي، لاحراق المسجد الاقصى ، وان الرد لن يكون اكثر من احتجاجات وصيحات لن تلبث ان تهدا ، ولن يكون لها على الصهاينة اثر ولا ضرر .

وكان موشي ديان هو القائد الصهيوني الذي داعبت الاحلام الخادعة اجفانه ، بل يقترن اسمه في التاريخ بتحقيق دولة (اسرائيل الكبرى) ، والقضاء على كل اثر للعرب والاسلام فيها . وان نصر حزيران الرخيص الذي حققته قيادته على العرب ، قد فاق جميع تقديراته وآماله ، فظن ان ما حلمت اسرائيل بتحقيقه ، على مدى اجيال وقرون ، اصبح ، بعد نصر حزيران ، امرا سهل المنال قريب التحقيق ، فطمع بأن يكون هو ذلك البطل المحقق لاحلام قومه .

واندفع ديان وعصابته في مغامراتهم ، وجرائمهم، التي بلغت ذروتها في احراق المسجد الاقصى ، ليعجموا عود العرب والمسلمين ، وليجربوا رد فعلهم ، حتى اذا وجدوه هزيلا ضعيفا ، عادوا الكرة لاحراقه بشكل تام ونهائي .

وفي الواقع كان رد فعل العرب والمسلمين ضعيفا، لا يتناسب وقدسية المكان الذي اشعل الصهاينة فيه النار ودنسوه. ولكن يجب ان نعترف للامانة والحقيقة، بان العرب انفسهم ـ اصحاب المصلحة المباشرة في ارض فلسطين ، وفي الحفاظ على قدسية المسجد الاقصى ـ لم يحسنوا الافادة من هذه المناسبة ، ولم يحسنوا

عرض قضيتهم ، ولم يعرفوا ما يريدون بالضبط من وراء دعوة اقطاب المسلمين الى مؤتمر الرباط . وفى اعتقادنا انهم لو اتبعوا صيحة الجهاد التي اطلقوها، بتنظيم جدي لايفاد متطوعة ومحاربين من العالم الاسلامي ، لرأينا اليوم زحوفا تتلوها زحوف من الابطال المستميتين ، يتدفقون على ميدان المعركة ، من كل أرض انطلقت من مآذنها صيحة (الله اكبر) ، ملبين داعي الجهاد المقدس ، ليقضوا على العدو الذي دنس مقدساتهم ، أو لينالوا اجر الشهداء على الارض المقدسة فى المعركة المقدسة .

ان الصهيونيين يستمدون على العرب كل من يستطيعون ، باسم الدين ، وباسم القومية ، وباسم المصالح الاقتصادية والسياسية .. الخ ، لا يفرطون فى عون يأتيهم وان صغر . ونحن نستبعد عونا كبيرا ، بل معينا من العون لا ينضب ، كان يمكن ان يكون فى كفتنا، وكان يمكن ان يؤثر تأثيرا فعليا وحقيقيا على اولئك الذين يدعمون اسرائيل ، ويمكنون لها ، لو اننا احسنا التصرف ، وعرفنا ما نريد ، الا وهو **عون العالم الاسلامي** ، ذي المصلحة الحقيقية فى ان لا يكون فى المنطقة خطر يهدد مقدسات الاسلام فى فلسطين والحجاز . .

وعلى كل حال فقد كان لاحراق المسجد الاقصى، ولتصريحات زعماء اسرائيل وتهديداتهم فائدة اذ فتحت عيون العرب على حقيقة ما يراد بهم ، وعرفتهم بحقيقة وضعهم ، الذي يغري الاعداء بهم . فادركوا انه ما لم يتم **تضامن حقيقي بين الدول العربية**، بانتظار قيام وحدة بين اقطارهم ، تستطيع اقامة دولة عصرية وجيش مدرب قادر على استيعاب العلم الحديث والسلاح الحديث ـ فانهم لن يستطيعوا رد الطامعين بهم ، وستبقى حفنة من المغامرين ، تستخف بهم ، وتستهزيء بهم وتتحداهم فى كل يوم وفى كل ساعة، وتضربهم فى عقر دارهم كلما شاء لها هواها ان تلهو بذلك

وقد كانت أول بادرة للتضامن تصدر عن العرب، وتشعر برفض هذا الواقع المؤلم ، هي **الاجتماع فى مؤتمر الخرطوم** ، الذي عقد اثر النكسة ، على دعم الامكانيات المادية والعسكرية لدول المواجهة مع العدو ، وعلى **رفض التفاوض** مع العدو ، وعلى رفض الصلح معه . وتلت ذلك ثورتان فى ليبيا والسودان ، كان من شأنهما وضع امكانيات القطرين الشقيقين فى الميزان العربي الفعلي فى المعركة المصيرية .

ولا شك فى أن السعي الجدي لتحقيق التنسيق والتقارب بين مصر وليبيا والسودان ، ستتلوه خطوات اخرى نحو الوحدة بين الاقطار الثلاثة ، تجعل تلك المنطقة المتلاصقة ، التي تضم قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع من الارض وخمسين مليونا من البشر ، كتلة واحدة فى المعركة ، ونواة تستقطب الاقطار العربية الواحدة بعد الاخرى ، لتجمع شملها من جديد .

واننا لا نشك فى ان التصريحات الوقحة التي صدرت وتصدر كل يوم ، عن قادة المنصريين فى اسرائيل ، والتى تكشف عن نواياهم واهدافهم ، واطماعهم التوسعية ، وان تدنيسهم للمقدسات الاسلامية والمسيحية فى القدس والخليل وبيت لحم والناصرة ، واعتداءاتهم المتكررة على الوطن العربي ، ستكون بدء النهاية بالنسبة لهذا الجسم الغريب الذى اريد زرعه فى جسم الامة العربية ، ويوم ينهار هذا الكيان القائم خلافا لمنطق التاريخ ، ولعقلية العصر ، سينال القادة المغامرون جزاء وفاقا على ما اقترفوه بحق الانسانية والمقدسات من جرائم .

وليس زعماء اسرائيل هم أول من طرأ على هذا الارض وحاول تدنيس مقدساتها ، والاساءة الى شعوبها ، وليس موشي ديان وعصابته هم أول المغامرين الذين اغراهم التفرق ، والنزعات العارضة بين شعوب العالمين الاسلامي والعربي ، بالاستطالة على العرب والمسلمين وعلى مقدساتهم ، وبالسخرية من قدراتهم، وامكاناتهم فى رد الاذى والحاق الهزيمة بالمعتدين . **فمنذ قرابة ثمانمئة عام حل فى جنوبي البحر الميت ، مغامر صليبي غادر** ، غرته انتصارات عارضة ، حققها الصليبيون على المسلمين فى المنطقة ، فظن ان بامكانه تدنيس المقدسات الاسلامية فى مكة والمدينة ، كما دنس من سبقوه المقدسات الاسلامية فى القدس والخليل ، واتخذوا من المسجد الاقصى ومسجد الصخرة مربطا للخيول ومهجعا للجنود .

وكان من نتيجة ذلك ان فتحت جرائم ذلك المغامر عيون العرب والمسلمين على حقيقة الخطر المحدق بهم وبمقدساتهم فى المنطقة كلها ، وادركوا انه ما دام هناك مستقر لجسم غريب فى ارضهم ، فلا امن ولا سلام ولا اطمئنان ، فتحركت ارتال تتلو ارتالا من المجاهدين ، من كل أرض من أراضي الاسلام ، ملبية دعوة الجهاد ، تقاتل وتحارب ، حتى كانت معركة حطين ، التي دفع ذلك المغامر قومه الى خوضها وهم

لها كارهون ، فوقع فى يد صلاح الدين اسيرا ، فلم يعف عنه ، لا نه اعتبره مجرما ، وقاطع طريق ، ولم يعتبره محاربا يحترم قوانين الحرب .

ومنذ ذلك اليوم ادرك الصليبيون ان دولتهم قد اصبحت فى حكم المقضي عليها بالزوال ، وتابع من خلفوا صلاح الدين المهمة التي بداها ذلك البطل ، حتى قذفوا بآخر الصليبيين فى البحر ، بعد مائة وعشر سنين من الحروب المتواصلة من يوم حطين .

وها نحن نسوق قصة ذلك المغامر الصليبي (ارناط) أو (رينودوشا تيون) لعلها ان يكون فيها عظة للعرب ، وعبرة للمغامرين .

— ارنـــاط —

تدفقت سيول الصليبيين على المشرق عام 1097 م (490 هـ) تريد — استجابة لنداء الكنيسة — استرجاع القدس من أيدي المسلمين ؛ ووجد الامراء المغامرون فى اوروبا الفرصة سانحة ، فتبنوا المشروع لعلهم يفوزون بامارات واقطاعات فى الشرق ، مستغلين حماسة البسطاء والسذج ممن دفعتهم الحماسة الدينية لتحقيق رغبات الكنيسة . وكان من بين اولئك الامراء المغامرين ، أمير نورمندي الاصل استقر اباؤه فى جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، وكان من نصيبه فى الميراث أرضا صغيرة فى جنوبي ايطاليا لا ترضي اطماعه الواسعة ، فاسرع بوهمند اوبيمتد كما تسميه الرواية على راس من تجمع تحت لوائه ، ينضم الى الجيوش الصليبية فى الجانب الشرقي من مضيق البوسفور .

وبعد حروب واهوال وفظائع ومذابح ، تمكن ثلاثة ارباع المليون من الصليبيين من شق طريقهم الى سوريا ، وكان اول ماحتلوه فيها ، مدينة انطاكية ، التى دافع عنها حماتها المسلمون اشرف دفاع واشجعه طوال عشرة اشهر . ولولا الخيانة التى اغرت احد القادة الداخلين حديثا فى الاسلام ، لما تمكن الفرنج من احتلالها ، ولتبدل سير التاريخ كله فى المنطقة .

وطمع بوهمند فى ان يقيم لنفسه امارة فى انطاكية وخاف رفاقه ، القادة الاخرون ، ان تفسد اطماع بوهمند خططهم الرامية الى التعاون مع الامبراطور البيزنطي ، اسحق كومنين ، وضرب المسلمين بقوة صليبية بيزنطية موحدة . وكان الامبراطور قد اخذ العهود والمواثيق على القادة الصليبيين بان يعيدوا اليه ما يحتلونه مما كان تابعا فى الماضي للامبراطورية البيزنطية ، وخصوصا انطاكية .

ولكن بوهمند لم يكن يفكر فى غير مصالحه الخاصة ، فرفض الاستماع الى النصائح والاعتراضات ، وتمكن بحيله ومدّوراته ، من الفوز بامارة انطاكية ، رغم معارضة بعض زملائه .

وسار الامراء الصليبيون الاخرون جنوبا ، واقام كل منهم امارة لنفسه ، فكانت هناك مملكة فى القدس ، وامارة فى طرابلس ، وامارة فى الرها (اورفه) .

واصبح بوهمند بلاء على المسلمين من جيرانه ، وكان اكثر ضغطه منصبا على حلب المجاورة لانطاكية ، ثم اسر بوهمند من قبل الغازي ابن الدانشمند ، أمير التركمان فى الاناضول ، ولكن لم يلبث ان فاوضه واطلق سراحه لقاء فديه كبيرة ، فعاد بوهمند يتابع اعتداءاته نحو من حوله من المسلمين والبيزنطيين .

ونقم البيزنطيون على بوهمند حنثه بيمينه ، وانكاره لحقهم فى السيادة على انطاكية ، فاغتنموا فرصة هزيمة الفرنج — وفيهم بوهمند — فى معركة حران عام 1104 م ، واسرعوا يحثون الخطا نحو كيليكيا واللاذقية التابعتين لامارة بوهمند . فخارت قوى بوهمند وشعر بالخطر الشديد المحدق به . فعهد بالامارة الى ابن اخته تانكريد ، وذهب الى اوربا ، ليستثير حملة صليبية اخرى ، هدفها انقاذ انطاكية من خطر المسلمين والبيزنطيين . ولكن بوهمند ذهب ولم يعد ، وتزوج هناك من أميرة فرنسية رزق منها بولد يعرفه التاريخ باسم بوهمند الثاني .

وفى الفترة بين ذهاب بوهمند الاول الى اوربا ، ووصول بوهمند الثاني الى الشرق ، تعاقب على انطاكية اميران نورمنديان ، احدهما يدعى تانكريد ، والاخر روجيه ، وقد قضى المسلمون على روجيه وعلى جيشه فى معركة البلاط على الطريق بين حلب وانطاكية .

وفى عام 1128 م ، وصل الى انطاكية بوهمند الثاني ، وهو شاب فارع الطول ، قوي البنية ، جميل الملامح ، قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، واتقن استعمال السلاح ، حتى بلد اقرانه به . وما هو الا ان تسلم امارة انطاكية حتى تزوج باليس الابنة الثانية لملك القدس بودوان الثاني ، وباشر الاغارة على جيرانه المسلمين ، ومباغتة الحصون القريبة من

اراضيه ، فحقق بعض النجاح ، وقد زاد ذلك النجاح المحدود فى صلفه وغروره .

وفى يوم من ايام شهر شباط (فبراير) 1131 ، اتجه بوهمند من انطاكية الى كيليكيا ، على راس قوة من فرسانه ، يريد ان يلحق به الامارة الارمنية ، بعد ان توفى صاحبها وابنه ، فانقض عليهم جيش من التركمان بقيادة الغازي بن الدانشمند (آسر بوهمند الاول عام 1101 م) ، واحاط بهم احاطة تامة ، وانهال عليهم رميا بالنبال ، فخروا على الارض صرعى ، وكانهم اعجاز نخل منقعر ، وفيهم بوهمند نفسه .

ولم يترك بوهمند من الاولاد غير بنت صغيرة لا يتجاوز عمرهاالسنتين، اسمها (كونستانس) فتسلمت امها الاميرة (اليس) ادارة الامارة ، تحت وصاية ملك القدس .

ومرت الايام ثقالا على الاميرة الشابة فى ادارة امارة واسعة ، يطمع بها جيرانها البيزنطيون من الشمال ، والمسلمون من الشرق . وكان خطر المسلمين قد اصبح مقلقا فعلا ، اذ تسلم امارتي الموصل وحلب امير شهم ، بعيد الهمة ، قوي العزيمة، هو عماد الدين زنكي ، وقرر ان يخوض بالمسلمين حربا ضروسا مع الفرنج ، ليزيل ما تجمع فى نفس المسلمين من هيبة للفرنج فى ميدان الحرب . فسار بجيشه الى حصن قريب من حلب ، هو حصن الاتارب ، الذي طالما ارعب فرسانه اهل حلب ، وخربوا زروعهم ، ونهبوا اموالهم .

وتجمع الفرنج للدفاع عن الحصن ، وسال زنكي رجاله ماذا يرتاون . فاشار عليه بعضهم بالانسحاب من الارض التي يحتلها العدو ، والعودة الى حلب ، واشار عليه آخرون بالتراجع الى اراضي حلب ، فاذا لحق بهم الفرنج ، امكنهم انشاب المعركة فى ارض اسلامية.

وكان زنكي قد قرر فى نفسه خوض المعركة مهما كانت النتائج ، فقال لرجاله ، ان الفرنج قد استطالوا على المسلمين كثيرا ، وقد اصبح مالوفا لديهم ان يروا تراجع المسلمين واحجامهم عن القتال كلما راوا تجمع الفرنج ، ولذلك فانه يرى ان يذيق المسلمون باسهم للفرنج ، ليذكروا ذلك فى المستقبل ويقدروه . وانه يرى ان اي تراجع امام الفرنج سيجرئهم ، ويضعف من عزيمة المقاتلين المسلمين . وخلص من ذلك الى القول بانه يرى ان يقدم المسلمون للقاء العدو مصممين على النصر ، وما النصر الا من عند الله .

وتقدم المسلمون ، وقضوا على الجيش الصليبي واكثروا فيه القتل ، حتى ذكر ابن الاثير ، انه مر فى ارض المعركة ليلا ، بعد اكثر من سبعين عاما ، فقيل له ان عظام القتلى الفرنج ما زالت منتشرة فى تلك الارض . وعاد المسلمون الى حصن الاتارب فتسلموه من الفرنج ، فاخربوه حتى سووا بناءه بالتراب ، لكيلا يتركوا الرا يرمز الى الرهبة فى قلوب اهل حلب ، ومن حولهم من المسلمين .

وخافت الاميرة الشابة على ملكها ، فاخذت تراسل زنكي سرا ، وتضع نفسها تحت حمايته، فاساء ذلك الفرنج الذين تسربت اليهم انباء اتصالاتها بالمسلمين . واخذ الجميع يفكرون فى وسيلة يتمكنون بها من ابعاد الاميرة (اليس) عن حكم انطاكية ، وقد وجدوا ان خير الوسائل لذلك هي البحث عن زوج للاميرة الطفلة الوارثة (كونستانس) .

ووجدوا لها اخيرا شابا جميلا من نبلاء فرنسا ، هو الكونت (ريمون دوبواتيه) فقدم الى انطاكية على انه سيكون زوجا للاميرة (اليس) ، لكي يامنوا معارضتها فى دخول ريمون الى انطاكية .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجئت الاميرة بعقد قران ريمون على ابنتها كونستانس ، فانسحبت الى اللاذقية .

تسلم ريمون دوبواتيه ادارة انطاكية ، نيابة عن زوجته ، وكان فارسا نجدا ، ولكن خصائصه ومميزاته ضاعت **امام حنكة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود** ، الذي خلف اباه فى حكم حلب ، فى عام 1146م فانتزعا من الفرنج جميع ما كانوا يحتلونه شرقي العاصي ، كما انتزعا منهم جميع امارة الرها .

وفى 29 حزيران (يونيو) 1149 م ، ظفر نور الدين محمود بجيش انطاكية ، عند قرية (اثب) (القريبة من جسر الشغور) وابادة تقريبا ، وكان ريمون بين القتلى . فاصبحت كونستانس وصية على ابنها بوهمند .

وقد شعرت الاميرة ، لاول مرة ، بعد موت زوجها بلذة الحكم . وسر البطريرك لشعورها هذا ، فاخذ يشجعها على عدم الزواج مرة اخرى ، لكيلا

يأتي امير جديد يقضي عليه بالاقتصار على عمله الديني وحسب .

وحاول ملك القدس ـ وهو ابن خالة كونستانس ـ أن يجد لها زوجا يحرره من مسؤولية الاشراف على انطاكية ، ويستطيع النهوض باعباء الدفاع عنها في تلك الايام العصيبة من تاريخ امارات الفرنج في الشرق ، فلم تقبل الاميرة بزوج ، وآثرت الاستمرار في حياتها طليقة من قيود الزواج .

وسارت الامور سيرها العادي ، ونور الدين محمود يلح على ما بيد الفرنج من مدن وحصون ، في كل يوم ، وقلوب الفرنج في انطاكية وفي غيرها ، ترتجف هلعا ، كلما نظروا الى المستقبل المظلم .

لقاء الاميرة (بارناط)

وفي ذات يوم من أواخر عام 1152 ، لمحت الاميرة الشابة فارسا يدل زيه على انه حديث عهد بالوصول الى الشرق ، فاعجبت به واستدعته اليها ، وتعرفت عليه ، فزاد اعجابها به . ولم يكن ذلك الشاب غير المغامر رينو دوشاتيون (او ارناط كما تسميه الرواية العربية) الذي سيجر الممالك الصليبية كلها الى الهاوية في معركة حطين ، وهو الذي سيجره غدره ومحاولاته العبث بالمقدسات الى الموت بيد الرجل الرحيم صلاح الدين الايوبي .

وتكررت مقابلات الاميرة والفارس الفتى ، حتى افرمت به واتفقت معه على الزواج ، ووجد المغامر الجريء في هذا الغرام فرصة تحقق له اكثر مما كان يطمع به ويحلم ، فلم يشأ ان يضيعها . وكان لا بد ـ بحسب التقاليد ايام النظام الاقطاعي ـ من الحصول على موافقة ملك القدس ، بودوان الثالث على الزواج ، بصفته الوصي الشرعي على الاميرة وعلى الامارة ، وكان بودوان اذ ذاك منهمكا في حصار ميناء عسقلان في جنوبي فلسطين ، وعسقلان هي آخر ما تبقى بيد الفاطميين من ملك في فلسطين ـ فطار اليه الفارس المغامر ، يرجوه الموافقة على الزواج .

وعجب الملك من غرابة اطوار ابنة خالته ، كيف تقبل الزواج من شاب مغمور ، لا ثروة له ولا جاه ، بينما سبق لها ان رفضت الزواج بخيرة الامراء والنبلاء الذين عرضوا عليها في الماضي ! مع انه كان من الممكن أن يكون في ثراء هؤلاء النبلاء ، ونفوذ بيوتاتهم ، واتساع املاكهم ، خير عون لامارة انطاكية ، وللممالك الصليبية في الشرق ، في حربهم الشروس المستمرة منذ خمسين سنة . ولكن الملك الذي يئس من موضوع زواج (كونستانس) ، اراد ان يتحرر من اعباء الدفاع عن انطاكية ، فوافق على الزواج ، بعد أن جثا (ارناط) على قدميه ضارعا متوسلا .

تم الزواج الاسطوري ، وتسلم ارناط حكم انطاكية فساسها بعقلية المغامر الفظ ، وكان اول ما استهل به عهده في الحكم ، هو الانتقام من بطريرك انطاكية (ايمري دو لبموج) .

لقد كان البطريرك شيخا هرما يوم تم الزواج ، وكان يشارك الاميرة مشاركة فعلية في ادارة الامارة ، فاستمرأ الحكم والسلطة وسر بهما ايما سرور ، لذلك وجد من مصلحته ان تبقى الاميرة دون زوج ، تدير الامارة ، ليكون هو الحاكم الفعلي ، والموجه الاول ، تصدر الامور في انطاكية عن رايه ونهيه .

ولما تم الزواج فوجيء البطريرك به ، فامتعض وساءه ان يصبح تابعا لجندي مغمور ، ليس له من الميزات غير غرام الاميرة الطائش به ، فاطلق لسانه فيه ، واظهر له الاحتقار والازدراء ، وهو لا يعلم ان عدوه الجديد لا تقف قسوته عند حد .

قسوة ارناط وغدره

وسرعان ما تطور الصراع بين الرجلين ، فامر ارناط بالقبض على البطريرك ، وجلده في الساحة العامة حتى ادمى جلده ، ثم امر به فشد الى وتد ، وهو عاري الجسد ، تحت اشعة الشمس اللاهبة ، وطلي جلده بالعسل ، لتتجمع عليه الحشرات والهوام ، تلسعه وتشرب من دمه .

وقد استاء الناس في انطاكية من هذه الوحشية ، التي يعامل بها اميرهم الجديد رجلا هرما له مكانته الدينية في نفوس الناس ، وله فضله في الدفاع عن انطاكية ، في ايام الشدة ، بعد مصرع ريمون دو بواتيه ووصلت انباء هذه المعاملة الفظة الى ملك القدس ، فاوفد على جناح السرعة رسولا ، يستنكر عمل رينو ويستفظعه ، ويأمره باطلاق سراح البطريرك ، ففعل . ثم بدا لارناط أن يتفاهم مع الامبراطورية البيزنطية لمحاربة امراء الارمن في كيليكيا ، لعله يفوز بشيء من اراضيهم ، ولكنه سرعان ما انقلب على البيزنطيين ،

وتفاهم مع الارمن على محاربتهم ، واعد ارناط وطوروس امير الارمن حملة مشتركة على جزيرة قبرص ـ وكانت مقاطعة بيزنطية ـ فلم يشعر اهل الجزيرة الا والقوات الصليبية والارمنية تهبط فى اراضيهم وتنكل بهم .

وقد ارتكبت القوات الغازية من الفظائع والقبائح ما تقشعر لهوله الابدان ، فصلمت آذانا ، وجدعت انوفا ، وهتكت اعراضا ، ونهبت اموالا لا يحصيها عد. وعاد المغامران وايديهما مثقلة بالسبي والغنائم .

طمع ارناط وانانيته افشلا مخطط الصليبيين لاحتلال شيزر

كانت شيزر قلعة حصينة تقوم على الضفةاليسرى للعاصي ، وقد اعجز الصليبيين احتلالها ، بفضل دفاع امرائها ، آل منقذ وبفضل موقعها الجغرافي ، ومتانة اسوارها . وفى عام 1157 م ، ضربت هزة ارضية مدن سوريا فاخربت اكثرها ، وكان الخراب الذى اصاب شيزر كبيرا ، وكال آل منقذ قد تجمعوا فى قصرهم لحضور حفل فيه ، فانهار عليهم القصر ، ولم ينج منهم غير اسامة الذى كان منفيا خارج شيزر، وغير امراة وطفل منهم ، اخرجا من تحت الانقاض .

وفى ذلك العام ، واثر الهوة التي الحقت الدمار بالمدن السورية ، وقع امير سوريا وبطلها نور الدين محمود مريضا ، حتى اشفى على الموت ، فبدا للصليبيين ان يغتنموا الفرصة ، ليحتلوا شيزر ، ويثبتوا اقدامهم فى حوض العاصي من جديد .

وبدا للملك بودوان الثالث ان يحتل ما يمكن احتلاله من اواسط حوض العاصي ليسلمه الى الكونت (تيري دوفلاندر) يقيم له امارة فيه ، تفيد من الامكانات الضخمة التي يتمتع بها بيت الكونت وامارته فى فرنسا ، وبذلك يستطيع تخفيف العبء الثقيل الذي اصبحت تنوء به الامارات القائمة فى الشمال ، بعد القضاء على امارة الرها .

وفى اوائل تشرين الاول (اكتبر) من عام 1157 م تجمع حول شيزر جميع الامراء الصليبيين ، مع جيش ارمني يدعمهم ويعمل معهم ، وانضم اليهم الكونت تيري دو فلاندر ، ومن معه من الفرسان القادمين للحج والنجدة .

وشرع المحاصرون فى نصب آلاتهم ، وقذف الاسوار بالمجانيق ، وبعد مدة قصيرة من الحصار ، اقتحم الفرنج اسوار البلد واحتلوها ، فلجا المدافعون عنها الى القلعة وتابعوا دفاعهم .

وعرف ارناط بما ينتويه بودوان من تسليم شيزر وما حولها للكونت دوفلاندر ، فاستاء من ذلك واعترض على هذه الفكرة ، مدعيا ان شيزر وما حولها تدخل فى نطاق المجال الحيوي لانطاكية وان على تيري ، اذا تسلم امارة شيزر واواسط العاصي ، ان يكون تابعا له حسب التسلسل الاقطاعي . واستاء تيري بدوره من هذه الفكرة ، فانه لم يكن يخطر له على بال ، وهو المتحدر من اعرق البيوتات واكرمها ، ان يدين بالولاء والطاعة لمغامر افاق حمله الحظ الى كرسي الامارة ، واعلن رفضه لما اقترحه ارناط . واشتد الخلاف فى المعسكر الصليبي حتى كاد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه، فلم يجد بودوان بدا من رفع الحصار والانسحاب من شيزر لكيلا يكون احتلالها سببا فى نشوب حرب اهلية بين الصليبيين .

خضوع الجبناء

استاء الامبراطور مانويل كومنين ، اشد الاستياء من هجوم ارناط وزميله الارمني على قبرص ، ومن الفظائع التي ارتكبها ، ولكن ظروف الامبراطورية ، وما كانت تواجهه من مشاكل فى اوروبا ، لم تكن تسمح له اذ ذاك بالتفكير فى معاقبة المجرمين .

ولكن بعد ان تحرر الامبراطور من الكثير من مشاغله ، تحرك فى عام 1158 م ، على راس جيش كبير الى كيليكيا ، فسحق امارات الارمن فيها ، واستولى على امهات المدن ، واقام معسكره قرب المصيصة بانتظار تحركه لمعاقبة ارناط .

وعلم هذا بما ينتويه الامبراطور ، فجزع جزع الجبناء المجرمين ، وخارت قواه ، وشل تفكيره ، ولم يعد يعرف ما يصنع ، بعد ان ادرك ان جرائمه قد اسلمته لمصيره ، وانه لن يجد بسببها ، معينا له فى محنته . وبينما كانت هواجس ارناط تعذبه وتقض مضجعه ، لا حت لاحد المقربين منه فكرة ، وجد فيها الفرج والخلاص ، وهي : لماذا لا يخرج ارناط الى معسكر الامبراطور تائبا معتذرا ، ويضع نفسه تحت رحمته وتصرفه ، ويعلن له الاعتراف بطاعته والتبعية له . ؟ فقد سبق لوالد الامبراطور ان عفى عن ريمون

دوبواليه ، واكتفى بالاعتراف بالتبعية والولاء ، ورفع علم الامبراطورية على قلعة انطاكية .

وبدت الفكرة لارناط اخاذة . فانه اذا استطاع ان يدفع العقاب عن نفسه ، وان يؤجل احتلال انطاكية ولو الى حين ، يكون قد حقق كسبا لا يستهان به . فقرر السير بنفسه الى المعسكر الامبراطوري، وارسل قبله رسولا من رجال الدين ، يمهد السبيل ، ويلطف الجو . وتمكن الرسول،بحذقه ودهائه وجميل امتداره من تهدئة ثائرة الامبراطور ، ومن تخفيف نقمته على ارنـــاط .

ووصل ارناط الى المصيصة ، وكان عليه ان يجتاز المدينة كلها ، ليصل الى المعسكر الامبراطوري، فترجل عن فرسه ، وخلع نعليه، ولبس قميصا يكشف عن ذراعيه حتى المرفقين ، وامسك بسيفه من مقدمة النصل ، ليقدم قبضته الى الامبراطور ، وسار وهو على هذه الحالة المزرية ، من الذل والاستخذاء في شوارع المصيصة ، التي اصطف الناس فيهـــا على جانبي الطريق ، ليتفرجوا على هذا الجبان الذليـــل الغادر المتقلب .

ورضي الامبراطور ، ما تم من خضوع ارناط ، واكتفى بالاعتراف بتبعية الامارة له والسماح له باقامة حامية بيزنطية في قلعة انطاكية ، كرمز لاثبات حقه .

أســـر المغامـــر

وبعد ان رحل الامبراطور عن كيليكيا ، تنفس ارناط الصعداء ، ونسى ما لقيه من ذل ومهانة ، وعاد يتابع حياته المعتادة ، حياة المغامر الشريـر . وفي يوم من ايام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1160 م ، علم ارناط ان قطعانا كبيرة من الماشيـــة ترعـــى في السهول الواقعة بين عينتاب ومرعش ، وان هـــذه القطعان لا تحرسها قوات اسلامية ، وكانت القطعان في اكثريتها يملكها ارمن ويونانيون من سكان المناطق التي استرجعها المسلمون من الفرنج حديثا ، ولكـــن ارناط لم يكن يهمه من يملك القطعان ، وانما الـــذي يهمه ان يحقق مغنما ، دون ان يتعرض لخطر قتال .

وبينما كان الرعاة آمنين مطمئنين ، انقض عليهم ارناط وفرسانه ، فاسروهم ، واستاقوا قطعانهـــم فرحين بما حققوه من كسب . ولكن فرحتهم لم تطل كثيرا ، اذ ان انباء الهجوم الغادر ، وصلت الى نائب نور الدين في حلب ، مجد الدين ابي بكر بن الدايـــة ، فاستنفر قواته، وطار بها ليقطع الطريق على المغامرين.

وعلم ارناط وصحبه بخروج المسلمين اليهـــم ، فخاف اصحابه ، ونصحـــوه بان يتخـــلى عن المغنـــم الضخم ، وان ينســـحب عائدا الى انطاكية . ولكن ارناط اراد ان يتظاهر بالجراة الكاذبة امام صحبه ، فرفض الفكرة ، وامر فرسانه بسوق القطعان ، بين صفين من الجند ، وان يحثوا الخطا الى انطاكية ، وسار هو مع قوة من رجاله في الساقة ليحميها ويدافع عنها .

وبينما كان ارناط وصحبه يسيرون مسرعين قرب قرية الجومه ، شمالي غربي عزاز ، انقض عليهم فرسان حلب، وفتكوا فيهم فتكا ذريعا،وقتلوا اكثرهم، وجبن الاخرون فاستسلموا ، وكان بين المستسلمين ارناط . ونجا قليلون هاربين ، يخبرون فرنج انطاكية بانباء المعركة ومصير ارناط .

والقى ابو بكر بارناط وصحبه على ظهور الجمال، وكانهم بعض المتاع ، ودخلوا بهم حلب، فاسرع الناس يتفرجون على هذا المشهد الذي لم يعد يثير فضولهم كثيرا ، لكثرة ما تكرر منذ ان تولى عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود امور حلب . ووصلت الجمال باحمالها امام قلعة حلب التاريخية ، فانزلت الاحمال، واستيق ارناط الى سجنها ليقضي فيه ستة عشـــر عاما من حياته الشقية .

وبعد ان توفي نور الدين محمود ، موحد سوريا ومصر ، كان ابنه الملك الصالح ، صغيرا ، فاختلف الامراء من حوله ، ايهم يكفله ، ليبسط سلطانـه على الدولة . وتحرك صلاح الدين نائب نور الدين في مصر، يريد اثبات حقه في تولي رعاية ابن سيده . وجـــرت بينه وبين امراء سوريا المشرفين على الملك الصالح، حروب ووقائع ، انتصر فيها صلاح الدين ، ووصل في زحفه المظفر الى حلب ، فحاصرها .

ولم يجد من بحلب من الامراء وسيلـــة لدفـــع صلاح الدين عنهم ، غير الاتصال بالفرنج ، فتحـــرك ريمون الثالث ، امير طرابلس ليهاجم حمص ، كمـــا تحرك فرنج انطاكية . وليثبت امراء حلب للفرنج حسن نواياهم ، واخلاصهم في التعاون معهم ، اطلقوا في عام 1176 م سراح من كانوا في سجن حلب من الفرنـــج ، ومنهم ارناط .

وكانت امارة انطاكية قد تولاها وارثها الشرعي، بوهمند الثالث ، فلم يجد المغامر مكانا له في انطاكية ،

وتابع سيره الى القدس . وهناك تعرف بأرملة اخرى هي (اتين دوميللي) ، ارملة (اونفروادو تورون) (ابن الهنفري كما تسميه الرواية العربية) . وكانت هذه الارملة قد ورثت امارة شرقي الاردن ، التي يقوم فيها حصنا الكرك والشوبك ، فاعجبت هي به ، واعجب هو بمالها واملاكها ، التي تحتل افضل مركز جغرافي، يسيطر على طريق القوافل ، المتنقلة بين سوريا ومصر والحجاز ، فعقدا زواجهما حوالي عام 1177 م .

لم تكن الظروف مواتية لآمال ارناط واطماعه في المغامرة ، حينما كان زوجا لاميرة انطاكية . اذ كانت انطاكية محصورة بين مملكة نور الدين في الشرق ، وبين الامبراطورية البيزنطية في الشمال . وكانت انطاكية اقرب المواقع الصليبية الى حلب ، وحصونها الغربية ، فلم يكن في مقدور ارناط ان يندفع وراء مغامراته كما يحلو له ، دون ان يكون معرضا لخطر الانقضاض عليه من المواقع الاسلامية المحدقة بارض انطاكية . وقد رأينا كيف ان فرسان حلب كانوا أسرع من ارناط ، فاعترضوا سبيل عودته بالغنائم الى انطاكية واسروه .

كما ان الانضباط الذي كان يفرضه ملوك القدس على الامارات الصليبية الاخرى في المشرق ، كان سببا من أسباب كبح جماع المغامرين من الامراء ، والزامهم بالمعقول من التصرفات .

ولكن ما لم يكن ممكنا القيام به من المغامرات في انطاكية عام 1160 م ، اصبح ممكنا كل الامكان القيام به في جنوبي شرقي الاردن عام 1180 م ، فالملك بودوان الرابع ، اصبح ملك القدس ، وكان مصابا بالجذام ، وحالته ميئوس منها ، وقد ضعفت الملكية، واصبحت موضع مساومة ومنازعات بين الطامعين في السيطرة على الملك .

وفي المملكة الاسلامية كانت الظروف قد تغيرت هي ايضا ، فقد مات الرجل الحديدي الارادة ، نور الدين محمود ، واصبحت خلافته موضع نزاع بين الطامعين في ان يخلفوه ، **حتى تمكن صلاح الدين بعد كثير من الجهد من تثبيت اقدامه** ، وفرض سلطانه على المنشقين عليه .

اما من الناحية الجغرافية فان موقع قلعتي الكرك والشوبك ، في قلب الصحراء بعيدا عن عواصم المسلمين ومراكز تجمع قواتهم ، يجعل المغامرات اكثر ربحا ، واقل تعرضا للاخطار .

واذا فقد كان زواج ارناط من اميرة قلاع شرقي الاردن ، يحق جميع الشروط المناسبة والملائمة لانطلاق مغامراته من جديد .

واخذ ارناط يبث عيونه وارصاده من الصليبيين ومن بدو الصحراء ، ليرصدوا تحرك القوافل ، ويعلموه بها فيقوم بالاغارة عليها ونهبها وسبي من فيها ، دون ان يخشى مفاجأة من جيش اسلامي قريب .

وتكررت اعمال ارناط ، وعادت عليه الاعمال بالارباح الوفيرة ، فزاد ذلك في جرأته ، وفي اطماعه ، والمسلمون لا يستطيعون الوصول اليه ، كما لا يستطيعون ان يتخلوا من سلوك طريق الصحراء ليصلوا من سوريا وما وراءها الى مصر والحجاز .

ثم جرت اتصالات بين ملك القدس وبين صلاح الدين ، لتحقيق هدنة، تريح الجانبين من عناء الحروب المتواصلة ، وقد كانت الهدنة ضرورية لصلاح الدين، ليتفرغ الى تسوية مشكلات مملكته ، واستكمال وحدتها وكانت الهدنة اكثر ضرورة للصليبيين ، الذين انهكتهم الحروب ، وقلصت رقعة اراضيهم ، واخربت ما تبقى منها في أيديهم ، كما كانت ضرورة لهم لتسوية خلافاتهم الداخلية ، وخصوصا الخلافات بين أفراد البيوتات الحاكمة ومشاكلها العائلية ، والخلاف بين منظمتي الداوية والاسبتارية .

وحينما تحققت الهدنة كان من المفروض ان تشمل مملكة القدس ، بامارتها المختلفة ومنها امارة شرقي الاردن التي يحكمها ارناط . وانصرف كل من الجانبين الى تسوية اموره مطمئنا الى قدسية العهود والمواثيق .

ولكن هذه الهدنة لم ترق لارناط ، الذي اعتاد على تحقيق المكاسب والمغانم عن طريق العدوان على القوافل العابرة في الصحراء ، فاضمر في نفسه الغدر، وعدم التقيد بها . واخذ يتحين الفرصة ، المناسبة للغدر، فقد تكون الهدنة اكثر كسبا له. وبالفعل كانت.

ففي صيف عام 1181 م ، علم ارناط ان قافلة اسلامية كبيرة جدا ، قدرت الروايات ثمن ما فيها بمئتي الف دينار تسلك الصحراء مطمئنة الى الهدنة ، في حراسة عدد قليل من الرجال ، فاستعد للاستيلاء عليها .

ولما اصبحت القافلة قريبة من قلعته ، نزل من فيها يستريحون من وعثاء السفر ، وباتوا ليلتهم هناك،

فلم يشعروا الا وارناط ورجاله ينقضون عليهم ، ويمعنون فيهم قتلا وأسرا ، فنجا منهم من سبق فرسه ، ووقعت القافلة فى ايدي ارناط . ووصل الناجون من رجال القافلة الى دمشق يقصون على صلاح الدين اخبار الغدر الفرنجي ، فانزعج صلاح الدين وادرك ان وجود قلاع صليبية على الطريق بين شقي مملكته ، أمر بالغ الخطورة ، وانه لا بد من القضاء عليها اذا اريد للمملكة ان تزدهر وتتماسك .

وانزعج الصليبيون فى القدس كثيرا ، وخصوصا الملك بودوان الرابع ، الذى الم عليه المرض وانهكه ؛ فقد تعود اسلافه تشريف تعهداتهم ، والحفاظ على عهودهم ، كما تعودوا أن يثقوا بعهود المسلمين ومواثيقهم ، واسرع يكتب لارناط يلومه على هذا الغدر الذي يظهر الصليبيين بمظهر الغادرين الذين لا يتقيدون بعهد ولا ميثاق . وطلب اليه ان يعيد ما وقع بايديه من الغنائم الى المسلمين ، وان يطلق سراح الاسرى . فسخر ارناط من الملك ، واعلن رفضه الاستجابة للطلب . فعاد الملك وارسل اليه وفدا من رجال الدين ، ومن فرسان الاسبتارية، يلحون عليه فى ضرورة اعادة الاسرى والغنائم ، الى المسلمين ، للابقاء على الهدنة القائمة ، فلم يكن رد ارناط على الوفد بافضل من رده الاول . وسخر من الملك ومن سلطانه عليه .

واراد صلاح الدين ان تستمر الهدنة قائمة ، فكتب الى بودوان يعرفه بالواقعة ، ويستنكر تصرف ارناط ، ويطلب اليه التدخل لاعادة الاسرى والاموال. فلم يجد بودوان ما يرد به على صلاح الدين غير الاعتذار بانه لا يستطيع عمل شيء مع تابع لا يحترم عهدا ولا هدنة .

وحينما تلقى صلاح الدين هذا الرد ، اعتبر الهدنة غير قائمة ، وباشر الحرب من جديد .

وهكذا وجد الصليبيون انفسهم مسوقين برغمهم وراء المغامر ، لان غارات المسلمين لم تقتصر على أرض ارناط .

وفى عام 1182 م ، ذهب صلاح الدين لمصر ، ليتفقد شؤونها ، ولما علم الفرنج بذلك ، عقدوا مجلسا حربيا بحضور بودوان ، لمناقشة الموقف . وقد ارتأى المغامرون من انصار ارناط ، ان صلاح الدين ، سيعود على رأس قوات ، وانه سيهاجم معاقل ارناط فى الكرك والشوبك ، لينتقم منه ، وان الحكمة تقضي بان يتحرك الصليبيون لنجدة ارناط ، ولاعتراض سبيل صلاح الدين اثناء عودته من مصر الى دمشق .

ولكن العقلاء ، وعلى راسهم ريموند الثالث امير طرابلس ، الذي كانت تربطه بالمسلمين هدنة ، لم يروا هذا الراى ، وقدروا ان احتشاد الجيش الصليبي فى جنوبي الاردن ، امر بالغ الخطورة ، لانه يترك الاراضي الصليبية فى فلسطين ، خالية من القوات ، فتتعرض بذلك لهجمات المسلمين المباغتة .

وفازت نظرية الغامرين ، اذ لم يكن بودوان فى وضع يمكنه من اتخاذ موقف حازم . فعبأ الصليبيون قواتهم ، وصاروا بها الى الكرك ، وعسكروا حولها ينتظرون عودة صلاح الدين ، ليوقعوا به . ولكن صلاح الدين علم بمخطط الفرنج ، فخرج على راس فرسانه يعبر الصحراء على خير تعبئة ، وجعل اخاه نوري على راس قوة تحرس القافلة العائدة بالمتاع والمرضى والنساء ، على ان يسيروا موغلين فى الصحراء ، ليكونوا بعيدين عن متناول يد الفرنج .

وفى نفس الوقت ، الذي قرر فيه صلاح الدين عبور الصحراء ، اوعز الى ابن اخيه فروخ شاه ، وهو نائبه فى دمشق ، بان يغتنم فرصة خلو فلسطين من القوات ، ويضرب هناك بعنف . فخرج فروخ شاه من دمشق على راس قوة خفيفة الحركة ، واسرى الى منطقة الجليل ، فلم يشعر الفرنج ، الذين كانوا يعملون آمنين مطمئنين ، الا والجيش الاسلامي ينقض عليهم ، يقتل ويأسر ويسبي ويغنم ، ويخرب ، دون ان تكون للفرنج فرصة للالتجاء الى معقل او حصن. ثم عاد المسلمون الى منطقة السواد الواقعة شرقي بحيرة طبرية ، يوقعون بالفرنج ويفتكون بهم .

وتقول الروايات ان فروخ شاه ، عاد الى دمشق يسوق امامه قرابة الف اسير وعشرين الف راس من الماشية . وعلم الصليبيون وهم فى معسكرهم قرب الكرك ، بما احدثته غارة فروخ شاه من خراب ودمار، فى منطقتي الجليل والسواد ، فقلقوا وادركوا خطاهم باتباع اراء ارناط واصحابه ، فانسحبوا مسرعين الى منطقة الجليل ، وعسكروا قرب عيون صفورية ، بانتظار ما سيقوم به المسلمون .

اما صلاح الدين فانه وصل الى دمشق فى 22 حزيران (يونيو) 1182 م ، وبعد ان اطمأن الى وصول اخيه نوري والقافلة سالمين الى دمشق ، عاد بقواته الى حدود مملكته مع فلسطين المحتلة ، وعسكر فى

منطقة القحوانة ، قرب سمخ ، فلم يجرؤ الصليبيون على دخول المعركة معه . لانهم كانوا يدركون حقيقة تفوقه عليهم بقوائه وبموارده وبانضباط جيشه ، بينما كانت الفوضى والمنازعات الداخلية ، تنخر فى جسم الكيان الدخيل .

وبث صلاح الدين سراياه فى المنطقة تعيث فيها تحت سمع الجيش الصليبي وبصره ، دون ان يجرؤ على التعرض للمسلمين . وبلغت سرايا المسلمين بيسان وجنين تقتل وتخرب وتحرق ، لعلها تدفع الفرنج الى المعركة ، ولكن الصليبيين لبثوا ساكنين لا يتحركون . واخيرا اعلم الجنود صلاح الدين ان ازوادهم قد نفدت وان مقامهم قد طال ، فقرر صلاح الدين الانسحاب الى دمشق ، بعد ان تاكد من ان الفرنج لن يجازفوا بدخول الحرب .

اغرت ارناط انتصاراته المحدودة على القوافل العابرة فى الصحراء ، فجعلته يفكر بامور لم تخطر لغيره على بال ، لما فيها من خطر ايقاظ نقمة العالم الاسلامي كله ، ودفع المجاهدين الى التدفق على ميدان المعركة للقضاء على الخطر المهدد لمقدساتهم .

ويقول المؤرخون ان ارناط ، قد بلغ تيماء فى عام 1181 م ، فى احدى اندفاعاته فى الصحراء ، وتيماء تقع فى قلب الجزيرة العربية ، وانه كان ينوي التوجه من هناك الى المدينة المنورة لمباغتتها ، والاعتداء على قبر النبي عليه السلام ، ولكن هجوما قام به فروخ شاه على حصون ارناط فى شرقي الاردن ، اضطره الى الارتداد مسرعا ، مخافة ان يباغته فى الصحراء .

وقدر ارناط انه اذا تمكن من الاستيلاء على (ايلا) على خليج العقبة ، فانه يستطيع ان ينشىء اسطولا يسيطر على البحر الاحمر ، ويتحكم بموانىء المسلمين فيه ، وبالتالي فانه يستطيع الوصول الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة ، والايقاع بالمسلمين وهم فى موسم الحج .

وبالفعل نفذ المغامر مخططه ، فانشا قوارب فى عسقلان والكرك ، ونقل اجزاءها مفككة على ظهور الجمال فجمعها فى خليج العقبة ، وقذف بمراكبه فى البحر ، وبينما اتجهت قوة صليبية تحاصر ايلا ، اتجهت المراكب الاخرى تعبر خليج العقبة الى البحر الاحمر ، ومن هناك سارت الى الموانىء الاسلامية الآمنة التي لم تكن تتوقع ان ترى مراكب صليبية ، فاخذت فى نهبها ، والاعتداء عليها ، كما تعرضت للمراكب الاسلامية الماخرة فى البحر الاحمر ، فاوقعت بها ، ونهبت العديد منها . وكان اول ميناء ظهر الفرنج امامه هو ميناء (عيذاب) ، تجاه ميناء جدة ، ثم انتقل الفرنج الى الموانىء الحجازية يغيرون عليها ، حتى بلغوا ميناء الحديدة قرب ينبع ، ومنه اتجهوا الى رابغ شمالي جدة ، ينهبون ويقتلون ويأسرون ، ثم ارسوا مراكبهم فى الجوراء قرب رابغ ، ونزلوا الى البر يعيشون فيما حولها ، ويعدون عدتهم للايغال فى داخل الارض المقدسة والوصول الى مكة ، للايقاع بالحجاج المجتمعين فيها .

وفاق العالم الاسلامي لهذه الجراة التي لم يكن احد يتوقعها ، واضطربت نفوس الحكام ، وجاشت نفوس المسلمين بالغضب ، كيف تجرؤ شراذم طارئة على مشرقنا المتسامح ، فتفكر فى تدنيس المقدسات وترويع الآمنين اللائذين ببيت الله وحرمه .

وكان اسرع الجميع استجابة لنداء الواجب هو الملك العادل ، شقيق صلاح الدين ونائبه فى مصر ، فجهز اسطولا عهد بقيادته الى امير البحر حسام الدين لؤلؤ ، وكلفه بملاحقة الفرنج وردهم عن مقدسات الاسلام . فخرج لؤلؤ مسرعا ، يتبع الفرنج ، ويستقصي اخبارهم ، فادركهم وقد نزلوا بالحوراء ، فاستولى على مراكبهم الراسية ، ثم نزل ورجاله الى اليابسة ، لقتال الفرنج الهابطين على الساحل . ولما راى الفرنج غرق سفنهم ووقوعها فى ايدي المسلمين ، انقطع املهم فى النجاة بها ، فلجاوا الى شعاب الجبال القريبة من الساحل ، فلحق بهم لؤلؤ وقاتلهم فى شباط (فبراير) 1183 م ، قتالا شديدا حتى افناهم ، واخذ من تبقى منهم حيا اسيرا . فارسل بعضهم الى منى لينحروا فيها كالاضحي يوم عيد الاضحى ، امام الحجاج ، لتطمئن خواطر الناس ، وليعلموا ان قادة المسلمين لا يمكن ان يتهاونوا مع من يدنس مقدسات الاسلام ، فنحروا هناك يوم العيد ، والناس من حولهم يهللون ويكبرون .

اما الباقون من الاسرى ، فقد سيقوا الى مصر ، فأمر صلاح الدين بضرب اعناقهم جميعا لكيلا يفكر احد منهم فى العودة مع حملات اخرى على الطريق .

لم يكن صلاح الدين يجهل اهمية الخطر الذي يشكله على الاسلام عامة وعلى مملكته بصورة خاصة ، وجود الصليبيين فى سوريا ، وخصوصا وجودهم فى شرقي الاردن وجنوبي فلسطين . ولكن هذا الوجود

كان قبل صلاح الدين ، وكان من الممكن أن يستمر ، دون أن يشعر صلاح الدين بأن اقتلاعهم ضرورة ملحة لا يمكن تأجيلها . ولكن مغامرات ارناط في نقض الهدنة وسلب الحجاج والقوافل ، وقطع الطريق بين سوريا ومصر والحجاز ، ومحاولاته لتدنيس مقدسات المسلمين ، وترويع اهل الارض المقدسة، ومن يؤمها من الحجاج المسلمين ، كل ذلك اقنع صلاح الدين ، انه لا بد من القضاء نهائيا على هذا الخطر المهدد ، في اسرع وقت ، واجتثاثه من جذوره ، لكيلا تبقى له في ارضنا باقية . فشمر عن ساعد الجد ، واقسم على انه سينتقم بنفسه من ارناط ، وانه سيقتله بيديه ان ظفر به ، وقد مكنه الله من ذلك .

وتتالت حملات صلاح الدين على قلاع ارناط ، خلال الاعوام التالية ، وحاصره اكثر من مرة في قلعة الكرك وضيق عليه ، فكانت الجيوش الصليبية تتجمع في كل مرة ، وتسير لنجدة الكرك ، ولكنها كانت ترفض الدخول في المعركة مع المسلمين ، لانها كانت تدرك انها ليست كفاء لصلاح الدين وجيشه .

— ◆ —

وحينما حل عام 1187 م ، (583 هـ) ، اعتزم صلاح الدين الدخول في معركة فاصلة مع الفرنج ، فصرف همه لتسوية خلافاته مع اتباعه وجيرانه المسلمين ، كما طلب الى نائبه في حلب وحماه، بمهادنة الفرنج في امارة انطاكية ، (اما طرابلس فكان اميرها قد دخل منذ زمن بعيد في حمى صلاح الدين وهادنه) . ولما تحقق الصلح بين المسلمين وبين فرنج انطاكية في ايار (مايو) 1187 م ، (اواخر ربيع الاول 583 هـ) . اخذ السلطان في جمع القوات ، واستدعى تابعيه من الامراء في الجزيرة وديار بكر والموصل ، واستدعى قوات من مصر وحلب وحمص وحماة ، وخرج هو من دمشق الى عشترا (في حوران) ، واقام هناك ينتظر اجتماع الجيوش عليه . ولما تكامل اجتماعها ، استعرضها في منتصف ربيع الآخر 583 هـ ، وعباها تعبئة القتال ، وسار بها يوم الجمعة في 17 ربيع الاخر ، حتى نزل جنوبي بحيرة طبرية عند قرية الصنبرة .

وكان الفرنج قد علموا باجتماع الجيوش على صلاح الدين ، فاسرعوا بجمع قواتهم ، وعسكروا قرب عيون صفورية ، في الجليل ، ينتظرون التعرف على مرامي خطة صلاح الدين .

وفي اليوم التالي سار صلاح الدين ونزل على جبل غربي طبرية ، ولبث هناك ينتظر تعرف الفرنج ليقاتلهم ، ولكن الفرنج كانوا مختلفين فيما بينهم حول ما يجب عمله تجاه صلاح الدين . فقد مات الملك بودوان الرابع غير مخلف عقبا ، واوصى بالملك الى ابنة اخت له ، تزوجها رجل ضعيف الشخصية ، عرف باسم (جي دولوزينيان) فاصبح ملكا على القدس ، وقد احدث ارتقاء (جي) العرش انشقاقا في صفوف الصليبيين ، يضاف الى الفوضى القائمة بينهم .

ولما اجتمع الفرنج في صفورية ، ونزل صلاح الدين على طبرية ، اقترح المغامرون مهاجمة صلاح الدين لفك الحصار الذي ضربه على مدينة طبرية ، وكانت طبريه ملكا لزوجة ريموند الثالث امير طرابلس، وكان ريمند اكثر الصليبيين خبرة بالحرب ، وابعدهم نظرا ، واكثرهم ادراكا للواقع الصليبي ، وتقديرا لقوة صلاح الدين ، فكان رايه ان لا يخاطر الفرنج المتفسخون بالاشتباك بالمسلمين ، وهم اكثر ما يكونون قوة ، وتصميما على سحق العدوان ، والانتقام من محاولة تدنيس مقدساتهم . لذلك اعترض على راي القائلين بضرورة الاشتباك بصلاح الدين ، وقال لهم ان طبريه ملك لزوجته ، وان زوجته وابناءها موجودون في طبرية، وانه اذا احدث مكروه لطبريا فان المكروه سيصيبه قبل غيره ، ومع ذلك فانه يفضل ان يضحي بزوجته وابنائه وببعض املاكه ، على أن يقامر بمستقبل الممالك الصليبيين في المشرق ، فسخر منه المغامرون، واتهموه بالخيانة والتواطؤ مع المسلمين ، وتطاولوا عليه ، ولما اقنعوا الملك بضرورة السير الى طبريا لفك الحصار، وترحيل المسلمين عنها ، لانه ليس من الشهامة ولا الرجولة في شيء ترك الاميرة لمصيرها تدافع وحدها عن طبريه .

جرت تلك المناقشات في المعسكر الصليبي في في صفورية ، قبل أن يتحركوا من مواقعهم . ولما راى صلاح الدين الفرنج لا يتحركون ، ترك قوة في المرتفعات ، لمواجهة الفرنج ان تحركوا ، ونزل مسرعا مع قوة خفيفة الحركة ، فهاجم طبريه واستولى عليها سريعا ، واسر وقتل وغنم ، ولجأت الاميرة ومن نجا من المعركة ، الى القلعة يتابعون المقاومة ، فضرب صلاح الدين حصارا حول القلعة ، ولبث ينتظر رد فعل الصليبيين في صفورية .

ولما علم الفرنج بما حل بطبرية ، ارتفعت اصوات المتطرفين ، واقنعوا الملك بضرورة السير لانقاذ

الاميرة ، فتحرك المعسكر الصليبي كله ، نحو المسلمين رغم معارضة ريموند واحتجاجاته .

ولما علم المسلمون بتحرك الفرنج أرسلوا يخبرون صلاح الدين ، وكان هذا بالضبط ما قصده هو من مهاجمة طبرية ، وهو ان يستثيرهم ، وان يدفعهم الى قبول الدخول فى المعركة معه . فترك قوة من رجاله فى طبرية تتابع حصار قلعتها ، واسرع هو بمن معه الى المرتفع ، حيث ترك معسكره ، فوصله مساء الخميس فى 22 ربيع الاخر . وبعد قليل وصل الصليبيون ، واقاموا معسكرهم تجاه المسلمين ، ولم يجر قتال فى ذلك اليوم .

وفى صبيحة يوم الجمعة 23 ربيع الاخير 583 هـ (تموز 1187 م) ، اشتبك الفريقان فى قتال عنيف فى ارض اللوبية ، دام طوال النهار ، وكان الحر شديدا ، ولم يكن حول المعسكر الصليبي ماء يصلون اليه ، وحاولت قواتهم اكثر من مرة أن تشق طريقها الى طبرية لتستقي ، ولكن المسلمين كانوا يردونها ، بعد ان ادركوا غايتها .

وبات الفرنج عطاشا ، والمسلمون من حولهم يطوفون بمعسكرهم ، يرمونهم بالنبال طوال الليل ، حتى لم يتركوا لهم فرصة للراحة .

وبزغ الجانبان يوم السبت الى القتال ، والفرنج قد انهكهم التعب والعطش والحر ، وجرى عراك رهيب ، وصبر الفريقان صبرا عجيبا ، ورأى ريموند ان المعركة اصبحت خاسرة ، وانه لم يعد لهم امل فى نصر ، فحمل بمن معه من الفرسان حملة مستقتل يريد النجاة ، فامر قائد الفرسان تقي الدين عمر ، رجاله بأن يفسحوا لهم المجال ، فخرجوا من المعركة ، وتابعوا طريقهم الى صور . فاضعف خروج قوات طرابلس ، من عزائم المقاتلين ، وحاولت فئة اخرى منهم النجاة ، فلاحقهم المسلمون وأبادوهم .

اما الملك (جي) ومن تبقى معه ، فانهم لم يجدوا لهم مهربا ، فانحازوا الى تل حطين ، وتحصنوا فيه ، فاحاط بهم المسلمون ، وتجدد القتال على اشد ما يكون عنفا حول التل . واستمر حتى تمكن المسلمون من الوصول الى خيمة الملك فاخذوه اسيرا ، واسرع ارناط يلقي بسلاحه مستأثرا ، وفعل غيره مثل فعله . وانتهت المعركة مساء السبت باسر الملك واسر ارناط الذي اثارت مغامراته الحرب ، وغيره من الزعماء والقادة .

ولما انتهى القتال ، جلس السلطان المنتصر ، فى خيمته فرحا مسرورا ، بما افاء الله عليه من نصر ، وجلس من حوله كبار القادة والامراء ، واستدعى اليه الاسرى ، فاحضر الملك وارناط ، وقد هدهما العطش ، فأمر صلاح الدين للملك بشربة من ماء مثلج فتناول الكوب وشرب منها ، ثم ناولها لارناط ، وكان بجانبه ، فشرب ارناط وصاح صلاح الدين فى الترجمان ليقول للملك الاسير ، انت الذي سقى ارناط وليس انا . وكانت الاعراف تقضي بأن الاسير اذا نال من طعام آسره ، او من شرابه لم يعد يجوز له قتله . وقد سبق لصلاح الدين ان اقسم بانه اذا ظفر بارناط ليقتلنه بيديه ، وقد تسبب ارناط بمغامراته وجرائمه ، وخياناته للعهود والمواثيق ، بهذه الحرب الطويلة المتواصلة ، ولم يصر صلاح الدين على الاستمرار فى الحرب الا ليظفر بارناط ، ليجعله عبرة لكل غادر مغامر .

ولم يشأ صلاح الدين أن يقتل ارناط بحضور (جي) ، فاخرجهما من مجلسه ، ثم استدعى ارناط ، وعنفه على محاولاته تدنيس المقدسات الاسلامية ، وذكره بما كان منه نحو رجال القافلة الذين غدر بهم فى وقت الهدنة والسلم ، وسخر منهم ومن دينهم ونبيهم ، حينما ناشدوه الله ، وذكروه بالصلح القائم بين المسلمين والفرنج . ثم قام اليه صلاح الدين ، وقال له ها انا انتصر لدين محمد ، واستل سيفه وضربه به على كتفه فحله ، وقام من حضر بالاجهاز على ارناط ، ثم حملوه الى باب الخيمة والقوه ، ولما رأى (جي) صاحبه قتيلا جزع ، وخاف مثل مصيره فاستحضره صلاح الدين ، وطيب قلبه وهدأ روعه وقال له : (لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، واما هذا فانه تجاوز حده ، فجرى ما جرى) .

واثر معركة حطين بدأت تتهاوى المدن والقلاع التي كانت للصليبيين ، فى ايدي صلاح الدين ، وتابع من خلفوه خطته فى العمل على اجتثاث جذور الدخلاء ، حتى تمكنوا بعد قرابة مائة وعشر سنين ، من يوم حطين ، من القاء آخر الصليبيين فى البحر . ولم تستطع النجدات الكثيرة التي تلقاها الصليبيون من اوروبا من ان تمنع زوال كيانهم ، الذي قام فى غفلة من الدهر ، بالعدوان والقهر والغدر .